إيكولوجيات ما بعد الاستعمار

القيّمون: جود التميمي وفراس شحادة وريم مرجي.

مقدمة

خلال "مسيرة العودة الكبرى - احتجاجات غزة الحدودية" عام *2018-2019*، نظّم اللاجئون الفلسطينيون من عدة مخيمات لجوء في قطاع غزة مظاهرة أسبوعية سلمية على طول حدود فلسطين التاريخية للمطالبة بحقهم في العودة إلى ديارهم والأرض التي طردوا منها. لم يمض وقت طويل قبل أن تهاجم شرطة الحدود الإسرائيلية المتظاهرين، مما أسفر عن مقتل الكثيرين. وكما صرح ضابط كبير في مدرسة مكافحة الإرهاب التابعة للجيش الإسرائيلي، فإن هدف القنّاصة "ليس القتل بل الجرح ... في البداية، طلبنا منهم إطلاق النار على الساق؛ رأينا أن هذا قد يقتل، فطلبنا منهم إطلاق النار أسفل الركبة. في وقت لاحق، قررنا أن نكون أكثر دقة، فأمرنا بإطلاق النار على الكاحل". بدأ المتظاهرون بإلقاء الحجارة دفاعًا عن النفس، لكنهم قوبلوا بسياسة "إطلاق النار بهدف القتل" الإسرائيلية.

وفي السياق ذاته، بين 31 آذار و 6 نيسان 2018، جمع المتظاهرون في غزة الإطارات لحرقها في 6 نيسان استعدادًا لما أطلقوا عليه اسم "جمعة الإطارات / جمعة الكوشوك"، واستخدموا تويتر وهاشتاغ بنفس العنوان للحشد والتنظيم. كان إحراق الإطارات محاولة من قبل المتظاهرين لحماية أنفسهم من نيران القناصة وآلات القتل أثناء مواجهتهم لقوات إسرائيلية مدججة بالسلاح. وبحلول نهاية اليوم، قتل 9 فلسطينيين وجرح 1350. كان ياسر مرتجى من بين القتلى؛ مصور ومخرج أفلام فلسطيني يبلغ من العمر 30 عامًا. أنتج مرتجى أعمالًا لقناة الجزيرة وبي بي سي ووكالات إخبارية دولية أخرى وعمل كمصور ومساعد مع آي ويوي في تركيبه للفيديو "رحلة لزيز" عام 2017. في المتحف الإسرائيلي حيث يُعرض، سلّط العمل الضوء على الانهيار العقلي والمعاناة التي يعاني منها النمر "لزيز" الذي يعيش في ما تسمى "أسوأ حديقة حيوانات في العالم" في خان يونس، وعلى الرحلة التي قام بها من قطاع غزة إلى مطار في "إسرائيل" ومن هناك إلى جوهانسبرغ حيث أطلق سراحه. ترك لزيز ورائه أكثر من مليوني فلسطيني يعيشون عامهم الخامس عشر من الاختناق والعزلة في مساحة 365 كيلومترًا مربعًا تحت الحصار.

حدثت سلسلة المظاهرات تلك في سياق الذكرى السبعين للنكبة. حذّر مسؤولون إسرائيليون من أن الحرق الجماعي للإطارات على طول الحدود قد يسبب أضرارًا بيئية، داعين منظمة الصحة العالمية إلى منع ما وصفوه بـ "كارثة إيكولوجية". يربط التناقض الملازم للوضع التاريخ الكامل للمشروع الحديث والاستعماري، فمنذ البداية، تمظهر الاستعمار من خلال عمليات استخراج ونقل واستغلال لقوة العمل و"الموارد الطبيعية". في جوهرها، الكارثة الفلسطينية كارثة إيكولوجية؛ نتاجُ مشروعٍ استعماريٍ يزدهرُ على تلويث وتدمير النظم البيئية المحلية؛ من التطهير العرقي ومصادرة الأراضي إلى الفصل العنصري المناخي والاستعمار الإشعاعي. في كتابه "الدفاع الشعبي والنضالات البيئية"، كتب بول فيريليو (الذي توفي بعد بضعة أشهر من جمعة الإطارات): "الكوارث الإيكولوجية مرعبة فقط للمدنيين، لكنها بالنسبة للجيش مجرد محاكاة للفوضى، وبالتالي، موضوع دراسة و فرصة لمناورات واسعة النطاق في تضاريس مفتوحة خارج قيود الحدود الوطنية".

في مايو 2000، نشر كل من بول كروتزن ويوجين ستويرمر مقالًا في "نشرة التغيير العالمي رقم 41" الصادرة عن "البرنامج الدولي للغلاف الجوي والمحيط الحيوي" تحت عنوان "الأنثروبوسين". يعتمد هذا المفهوم الذي أعيد تقديمه حديثًا على فكرة قيام

"البشرية بدفع الكوكب إلى حقبة جيولوجية جديدة." يدعي مفهوم الأنثروبوسين أن الإنسانية ككل (جميع الأجناس والإثنيات والأعراق والطبقات) مسؤولة بالقدر ذاته عن الأزمات الإيكولوجية الحالية، بالرغم من إرث الإبادة الجماعية الاستعماري والرأسمالي. بالنظر إلى حجم البصمة الكربونية المنتجة، فإن خطاب الأنثروبوسين لا يسأل أين ولماذا ومِمّن؟

تتوافق حلول الرأسمالية البيئية / الرأسمالية الخضراء للانهيار الإيكولوجي الوشيك مع هذا الخطاب، وتؤيد فكرة الاقتصاد أولاً والمناخ ثانيًا. بدلاً من النظر في الظلم البيئي والمناخي والاقتصادي والعرقي، تقدم الرأسمالية الخضراء مشاريع واستثمارات مصممة لجني المزيد من الأرباح من الكارثة. تفكر كل من إدارة الكوارث وصناعة حقوق الإنسان بمنطق مالي.

مع أساسه القائم على ثنائية "الرجل الأبيض" مقابل "الطبيعة"، فإن نطاق الاستعمار الرأسمالي نطاق كوكبي. إذا كان المشروع الاستعماري مشروعًا كوكبيًا، فإن إنهاء الاستعمار سيكون أيضًا على نطاق كوكبي. إنهاء الاستعمار إزالة للتلوث.

إزالة التلوث كإنهاء للاستعمار.

عمّا قَليل

تُقيمون عالمكُمْ فَوْق عالَمِنَا

مِنْ مقابِرِنا تَفْتَحون الطَّرِيق

إلى الْقمر الاصطناعيِّ

هذا زمان الصّناعاتِ. هَذَا

زمانُ المعادن، من قطعةِ الفحْم تبزغُ شمْبانيا الأقْوياء..

هُنالك موْتى ومستوطناتٌ، وموْتى وبولدوزراتٌ، وموْتى

ومستشْفياتٌ، وموتى وشاشاتُ رادار ترْصُدُ مَوْتى

يعيشون بَعْد الممات، وموْتى يُربّونَ وحْش الحضارات مَوْتًا،

وموتى يموتون كيْ يحملوا الأرض فوق الرّفاتْ..

إلى أيْنَ، يا سيّد البيض، تأخُذُ شعْبي.. وشعْبَكْ

إلى أيّ هاويةٍ يأخذُ الأرض هذا الرّوبوتُ المدجّج بالطّائِرَات

وحَامِله الطّائرات، إلى أيّ هاويةٍ رحبةٍ تَصعَدُون

- محمود درويش، "خطبة "الهندي الأحمر" ـ ما قبل الأخيرة ـ أمام الرجل الأبيض"

مختصر

يتأمل برنامج "إيكولوجيات ما بعد الاستعمار" في الأسئلة الإيكولوجية الأساسية، ويتناول طرق تأثير/تلويث الممارسات الاستعمارية والاقتصادات الاستخراجية على البيئات الطبيعية للشعوب الأصلية والنظم الإيكولوجية المحلية. بعيدًا عن العنف المعرفي الذي سُنّ من خلال تقنيات القياس والحساب السائدة التي تُخضع أشكال الحياة لمنطق السوق، يكشف مشروع المعرض عن أنظمة المعرفة الأصلية المتجذرة في مفاهيم الطبيعة والأرض كمصادر للحياة والعيش. وتفكّراً مع كتبات فرانز فانون حول الاقتصاد السياسي، ندعو المشتركين للانضمام والمشاركة في قراءات نقدية ضمن موضوع محو الاستعمار ووضع تصورات لسيناريوهات مستقبلية للحياة تعترف بالأرض باعتبارها "القيمة الأكثر أهمية" وبدبالها كناقل للذاكرة والصدمات الجماعية وفي الآن ذاته كموقع لإحياء وتجديد الممارسات المناهضة للاستعمار. وبموضعه المضاد للغة الحداثة والاستخراج، يستدعي البرنامج في جوانبه المتعددة عوالم أخرى قيد الإنشاء ويستكشف أنماطًا راديكالية للتنظيم الاجتماعي تركز على المساعدة المشتركة والتعاون الأكثر من بشري.

يُنظر في الاستعمار في شكله التاريخي وكذلك كولونيالية رأسمالية الشركات الحالية واقتصاديات المساعدة والتنمية. يستمر الاستعمار الاستيطاني في تشكيل الحياة اليومية لملايين الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال، حيث تُحشَد الزراعة والحياة النباتية كوسيلة أساسية لممارسة العنف من خلال الاستيلاء على الأرض ونزع الملكية. وفي الوقت نفسه، لا تزال الصناعات الاستخراجية وأجندة التنمية تنتهك البيئات الطبيعية وأجساد الشعوب الأصلية في جميع أنحاء العالم، مما أدى إلى تآكل التربة وتدمير التنوع البيولوجي الزراعي والقضاء على الاكتفاء الذاتي، وكل ذلك باسم الإنتاجية. وبالمثل، جاءت الجائحة الحالية نتيجة تدمير الموائل الطبيعية واستغلال الحيوانات المدفوع بتوسع الاستخراج الرأسمالي والتحضر والزراعة المكثفة.

وكما قال فانون، ينبع جزء من عذاب الشعوب من عذاب الأرض والتراب. في طرحه لقضية محو الاستعمار، فهم فانون أن الأرض "هي القيمة الأهم"، حيث سلّط الضوء على العلاقة التي لا تنفصم بين الأرض والحياة باستخدام استعارة "الخبز"، مما يدل على اعتمادنا على الأرض كمصدر لكسب الرزق والعيش. يعتبر استرجاع الأرض والسيادة على الموارد الطبيعية في صميم مشروع إنهاء الاستعمار، والذي في غيابه يبقى المستعمَر في ظروف هشّة. يتردد صدى هذا الارتباط اليوم، حيث تستمر الشركات متعددة الجنسيات في الاعتداء على مشاعنا الطبيعي من خلال عمليات الاستيلاء على الأراضي والخصخصة وأنشطة التعدين، ولا تزال المجتمعات تعاني عواقب حروب النفط الإمبريالية التي تركت الأتربة والمجاري المائية والرئات ملوثة. يبقى المنطق الاستعماري واضحًا في الطرق التي يتم بها تنظيم هذا التعرض للضرر البيئي والسُمّية على أساس الطبقة والعرق والإثنية والجغرافيا. قائم على تراكم رأس المال إنه إنتاج للحياة، في جوهره إنتاج للموت والندرة.

يدعم توزيع ذلك العنف حداثة تُخضع جميع أشكال الحياة لأنماط قياس وتصنيف امبريالية، تهمّش في ضوئها أنظمة المعرفة الأصلية، وتبنى الطبيعة والذوات المستعمَرة على أنها "آخر" و "غير بشري" لتستغل ويسيطر عليها. يؤيد هذا البناء منطق

سوق يقوم على التسليع والتبادل ويبرر التوسع الاستعماري. تعزز تقنيات الحوسبة والحساب هذا "العنف المعرفي" عن طريق اختزال الحياة والطبيعة إلى مشكلة مالية وإخضاع كل المعرفة للخوارزمية. في أحسن الأحوال، تُصلح الحلول التي يطرحونها سطح ما تم تدميره بشكل منهجي وكامل، وفي أسوأ الأحوال، تساهم في عملية إعادة إنتاج لا نهائية لـ "الكارثة" وتحمل الفرد مسؤولية هذا الدمار. يدل هذا على أهمية القطيعة مع هذه الهيمنة المعرفية وتوسيع مشاركتنا في إنهاء الاستعمار من أجل "استعادة" عمل المنطق"و" قدرتنا على التفكير"ضد الخوارزمية و"الحلول البرمجية"؛ التحرك نحو كوكبية تجمع العديد من المعارف والخبرات وطرق الوجود.

علاوة على ذلك، كيف نذهب إلى ما هو أبعد من نقد العلم والتكنولوجيا تجاه تنوع تقني يفصل نفسه عن منطق وقواعد الحداثة؟ هل يمكننا التفكير في "العلم على أنه" ترجمة "أو" تفسير"؟ حيث التشعب وعدم الاتساق والاختلاف؟ المعرفة التي زعمت تاريخيًا على أنها معرفة غَربِيّة ليست "ملكًا للغرب" وحده. يحمل ما يصفه مبيمبي بـ "الأرشيف الغربي" موارد تفكيكه والحجج المضادة له من الداخل فإن "معذبي الأرض"قد شاركوا في "صنعه".

تدل أيضًا القطيعة مع نظرية المعرفة السائدة على قطيعة مع أنماط التمثيل المهيمنة. كيف يمكننا كفنانين وممارسين ثقافيين تجاوز لغة "الإدارة والخدمات" التي تختزل الطبيعة إلى مورد قابل للاستغلال نحو جماليات ودلالات تحرر الأرض والتربة من لغة رأس المال وتسلط الضوء على حيوية وشقاء أرضنا وعمالتها الأكثر من بشرية كيف يمكننا ترك هذه المخلوقات / الكائنات تتحدث، بينما نشغل مساحة نقدية فيما يتعلق بآثار "التحدث بإسم" أو "إعطاء صوت" لمن هم أكثر من بشر؟

تعتمد قراءتنا للأزمة البيئية على تأثيرات المعارف والممارسات الاستعمارية، لكنها تثير في الوقت نفسه أسئلة حول فاعلية وتواطؤ الهياكل المحلية للسلطة. إن حالة الطوارئ الدائمة التي أصبحنا نعيش في ظلها هي وإلى حد كبير نتيجة لدولة ما بعد الاستعمار التي تشكّل مسارها من خلال إساءة استخدام للسلطة وفساد وسوء إدارة للموارد. تشير حقائق اللامساواة والفقر والتي حددت منذ الاستقلال التجارب المعاشة لغالبية السكان المُستعمرين سابقًا إلى أهمية التحرك نحو فهمٍ أكثرَ تعقيدًا للذات والآخر يتجنب ترسيخ سياسات الهوية، فضلاً عن الحاجة الملحة لإعادة مركزة مسائل الطبقة والاقتصاد والامتياز في النقاشات الحالية حول إنهاء الاستعمار.

لا تكتمل معالجة مسألة انتهاك الأجساد والمساحات الطبيعية دون وضع اعتبار لأهمية إعادة إنتاج قوة العمل في استدامة الاقتصادات الرأسمالية الاستخراجية والمفترسة. ومع ذلك، فإن الانتباه إلى أهمية الجسد كتركيب معقد من الاحتياجات والرغبات في مقاومة الاستغلال وكأحد الدوافع الرئيسية لقدرتنا الجماعية على تخيل ممارسة تحررية. علاوة على ذلك، وعند العودة إلى الجسد، كيف يمكننا التعامل مع إيكولوجيا الوهن واليأس والقلق والخسارة فات مواجهة الحاضر والمستقبل؟

غالبًا ما يثير التفكُّر في المستقبل مسألة المشيعة. تؤكد الكثير من سرديات مستقبل الحياة على الكوكب على أهمية مشاركة الموارد والعودة إلى اتخاذ القرارات بشكل جماعي في محاولاتها لتصميم مخيلات المقاومة. ولكن أبعد من ذلك، كيف يمكننا أن نجلب إلى حيز الوجود سياسة مشاركة جماعية تتجاوز شخص الإنسان لتشمل الكائنات الأكثر من بشرية كـ "شهود" وعملاء للتغيير؟ وبصفتنا فنانين وممارسين ثقافيين، هل يمكننا تخيل مستقبل للحياة يتعدّى الملكية وينمي علاقات أكثر من بشرية من خلال اعترافه بالأرض كالقيمة الأهم؟ تفكيك الإنسان وإعادة تشكيله. صياغة أنفسنا من جديد. ننطلق من أن السعي وراء طرائق تقوم على التكافل والتبادلية والمساعدة المشتركة ليست ترفًا، بل مسألة نجاة جماعية.

المراجع

César, F 2018, Meteorizations, Third Text #32(2-3), pp.254-272

Clare, S 2013, Geopower: The Politics of Life and Land in Frantz Fanon's Writing, Diacritics #41(4), pp.60-80

Sahakian, R 2019, Extraction Rebellion, n+1, viewed 15 December 2020, <https://nplusonemag.com/online-only/online-only/extraction-rebellion/>

Fanon, F 2004, Wretched of The Earth, New York: Grove Press, pp.1-180

Federici, S & Anderson, A 2019, Ecologies of Care. [Online] 11 September, e-flux Videos. [Accessed 10 November 2020]. Available from: https://www.youtube.com/watch?v=eAhcq7o_JWc&feature=emb_title

Federici, S 2018, Re-enchanting the World: Feminism and the Politics of the Commons, Oakland: PM Press. pp.151-198

Ferreira da Silva, D 2017, 1 (life) ÷ 0 (blackness) = ∞ − ∞ or ∞ / ∞: On Matter Beyond the Equation of Value, e-flux journal #79, pp.1-11

Gray, R & Sheikh, S 2018, The Wretched Earth: Introduction, Third Text #32 (2-3), pp.163-175

Hui, Y 2020, For a Planetary Thinking, e-flux journal #114, pp.1-7

La Bellacasa, M, P 2014, Encountering Bioinfrastructure: Ecological Struggles and the Sciences of Soil, Soil Epistemology #28(1), pp.26-40

Mbembe, A 2015. Decolonizing Knowledge and the Question of the Archive. Africa is a country. pp.24

Mbembe, A 2019. Life Futures and the Future of Reason. [Online] 26 October, The European Graduate School, Saas Fee. [Accessed 14 August 2020]. Available from: https://www.youtube.com/watch?v=uv11y10XaLY

Mbembe, A 2020, The weight of life: On the economy of human lives, Eurozine, viewed 5 September 2020, <https://www.eurozine.come/the-weight-of-life/>

Sheikh, Sh 2017, Second Assembly: Non-Human Assemblages. [Online] 25 November, BAK basis vooractuele kunst. [Accessed 8 January 2021]. Available from: https://www.youtube.com/watch?v=_xtdKCIzY8M

Tsing, A 2015, The Mushroom at the End of the World: On the Possibility of Life in Capitalist Ruins. Princeton University Press. pp.217

Yusoff, K 2018, A Billion Black Anthropocenes or none, Minneapolis: University of Minnesota Press.